



البُعد السلطوي، والمعرفي، والفلسفي في روايتي "عندما بكى نيتشه" و"علاج

شوبنهاور" لإرفين د. يالوم

**The Authoritarian, Cognitive, and Philosophical Dimension in
When Nietzsche Wept and The Schopenhauer Cure: Irvin D.
Yalom**

الهادي بوزيب*

جامعة عبد الرحمان ميرة، بجاية- الجزائر elhadi.boudib@univ-bejaia.dz

تاريخ النشر:

2025-06-03

تاريخ القبول:

2025-06-01

تاريخ الإرسال:

2025-02-20

ملخص: تتفاعل الرواية مع الخطابات المختلفة عنها، إذ يسمح لها شكلها المنفتح أن تستوعب المعارف الفلسفية والعلمية، دون أن تفقد شرطيتها وهويتها الجمالية، وعلى هذا النحو وظفت روايتنا "عندما بكى نيتشه" و"علاج شوبنهاور"، المعرفة الفلسفية، انطلاقاً من اعتمادهما على آلية الحوار السردية، حيث يتعرف القارئ بناءً عليه على المواقف والمضامين الفلسفية المقترحة من الفيلسوفين، فكرياً وسردياً وجمالياً.

كلمات مفتاحية: المعرفة؛ السرد؛ الحوار؛ الفلسفة؛ السلطة.

Abstract: The novel interacts with discourses different from it. Its open form allows it to absorb philosophical and scientific knowledge without losing its conditionality and aesthetic identity. In this way, the novels "When Nietzsche Wept" and Schopenhauer's treatment of philosophical knowledge, based on their reliance on the mechanism of narrative dialogue. On its basis, the reader learns about the philosophical opinions and contents proposed by the two philosophers, intellectually, narratively, and aesthetically.

Keywords: knowledge; narrative; dialogue; philosophy; power.

1-المقدمة: يهدف هذا المقال إلى معالجة إشكالية محورية، تتمثل في كيفية توظيف المعرفة الفلسفية داخل أنظمة السرد، وعلى وجه التحديد، كيفية تطويع المعطى المعرفي وإعادة اشتغاله وتنزيله وفق مقتضيات المقاصد التي يسعى إليها الروائي في عملية نقل وتحويل النظريات المعرفية ذات الطبيعة التجريدية في مفاهيمها وتصوّراتها، حيث يكون نظامها التواصلية والتداولية حكرا على قلة من الفاعلين والمتلقين لها.

إنّ الغاية التي يسعى هذا المقال إلى تحصيلها هي محاولة نقدية ينصب اهتمامها على كشف عملية التفاعل بين المعطى السردية وجمالياته، وكيف يمكنه أن يتمثل ويوظف المرجعيات المعرفية الخارجة عن شكله ونمطه الخاص.

كما نهدف أيضا إلى الوقوف على هذا التداخل بين الروائي والفلسفي ضمن الشكل الذي ينبثق من التجربة الجمالية، والتي تخلق تلقياً وشحنا معرفيا وفنيا في الآن نفسه. ولتفكيك الحضور النسقي لمسألة المعرفة، وسلطتها في إنتاج المفاهيم وصياغة التصورات، من خطاب نظري له لغته ومصطلحاته الخاصة، إلى خطاب سردي بمميزاته في التواصل مع القراء، فنحن أمام خطابين مختلفين في تبليغ الرسالة اتجاه منتجي المعرفة والسرد والمتلقين.

اخترنا، بغية توضيح العلاقة التي تربط بين المعرفي والسردية، روايتين من نصوص الكاتب الأمريكي "إرفين د. يالوم" "عندما بكى نيتشه" و"علاج شوبنهاور" التي عمل فيهما على تمرين المعرفة الفلسفية والنفسية في سياق الأطر السردية كمحاولة بيداغوجية، هدفها التبسيط والتعرف على المعرفة الفلسفية وطريقة تفكير الفلاسفة في القضايا الوجودية والإنسانية.

2 - الإطار المفاهيمي:

1.2 - السلطة: تتحدد طبيعة السلطة انطلاقا من المفهوم الضمني الذي تشغل عليه؛ فالسلطة ترتبط بجوهر القوة وحضورها داخل البنية التي أنتجتها فكريا وثقافيا واقتصاديا،

وقد اجتهد المفكرون والدارسون في تحديد مفهومها وتصورها وطريقة اشتغالها، وفي هذا الإطار يمكن أن نستند إلى تصورين أساسيين:

أ - **التصور الأول:** يعود مفهوم السلطة إلى المكون الإيديولوجي، الذي يهيكله المؤسسات السياسية والثقافية والاجتماعية، فالسلطة تتشكل ضمناً انطلاقاً من البنية التي تأسس حضورها وفق الفعل التاريخي لها.

وقد عقدت الأطروحة الماركسية صلة بين مسألة السلطة بالمكونات الطبقيّة للصراع الاجتماعي والاقتصادي، وتقسيم العمل، والتميّزات الأيديولوجية والاقتصادية بين الطبقات، تتولد على أساسها فكرة السلطة، من حيث هي محرك للصراع والتدافع على المصالح الرمزية، والمادية، والاقتصادية، والسياسية وفق قاعدة التفاعل الجدلي بين البنى التحتية والبنى الفوقية.

فالتصور الماركسي، عموماً، لمفهوم السلطة، هو شكل من أشكال النقد لسلطة الحداثة وبيانها التاريخي، و«إذا كانت الحداثة تشير من خلال تصور فيبر إلى تلازم بينها وبين العقلانية متمثلة في المؤسسة الرأسمالية والجهاز البيروقراطي والحديث عن تاريخ عالمي»¹.

يتعذر فهم مقولة السلطة، إلاّ من خلال إدراك مقولة الحداثة المنتجة للنمط الرأسمالي سواء في المعرفة أو الاقتصاد والاجتماع والسياسة والفن.. الخ. فالجهاز الرأسمالي وبنيته أفرز سلطة مفارقة بين قوى الإنتاج، والعلاقات الإنتاجية، ومن هذه الزاوية قدمت الماركسية نفسها كنقد جذري لمفهوم السلطة التي أنتجتها الرأسمالية وسحبها على باقي النظم الثقافية والسياسية.

ب- **التصور الثاني:** يتحدّد مفهوم السلطة من خلال تموقعها ضمن العلاقات التي تحضر فيها، بغض النظر عن طبيعة هذه العلاقة أو شكلها "اجتماعية، ومعرفية، وعلمية، وسياسية" ف «للسلطة موقع، معنيان مختلفان: هي ذات موقع، لأنها ليست

على الإطلاق شمولية، لكنها غير ذات موقع، وليست قابلة لأن تحصر في مكان بعينه، لأنها منتشرة»².

إنّ السلطة وفق هذا المنظور هي فاعلية إنتاجية لفعل القوة، وفرض منطقها، والذي هو عمودها وقوامها في خلق ضرورات الهيمنة على الفرد أو الجماعة، وفق موقعها وحضورها في مختلف المؤسسات الاجتماعية.

والفكرة الأساس أنّ تشكيل السلطة يحصل من خلال علاقات الأفراد في مصالحهم الخاصة والعامة.

2.2- المعرفة: يرتبط مفهوم المعرفة بالإدراك العقلي والحسي، والتصورات التي تنتجها حول الأشياء المجردة والمشخصة، فالمعرفة فعل إدراكي، غايته تركيب الصورة والشكل المفهومي المكون لها، «إنّ المعرفة نظام عملي، "مجموع آليات" عبارات ورؤى، إذن، فلا شيء يوجد خلف المعرفة»³

يختلف مفهوم المعرفة عن العلم، حيث المعرفة هي مجمل التراكمات الإدراكية حول الموضوعات والظواهر المختلفة، من قيم وأفكار ومخيل، ومسالك نفسية وفلسفية، وصراعات اجتماعية وسياسية، ف «المعرفة هي وحدة بناء يتوزع في مختلف العتبات، بل البناء ذاته لا يوجد كتكدس لتلك العتبات تكدسا يتخذ اتجاهات متباينة، والعلم ليس سوى تكدس واحد من تلك التكدسات»⁴

إنّ تكوين المعرفة للمفاهيم والتعريفات والماهيات الممكنة، هي غاية العقل الإنساني ومبتغاه واحتياجاته لتلبية مطالبه الأنطولوجية.

ذلك أن مفهوم المعرفة ليس مجرد مفهوم محايد أو موضوعي، بل أنّ هذه المعرفة مرتبطة بالأشكال الاجتماعية والثقافية والحضارية التي ولّدتها؛ أي لا يمكن أن نفهم المعرفة في أي حقل دون معرفة جذورها ومصادرها المختلفة.

فالإنسان كائن يبحث عن المعنى الدال الذي يقوده إلى الحقيقة الممكنة والمحتملة عن ذاته، وتطلعاته النفسية والاجتماعية، «ما يميز الاهتمام بمظاهر الاشتغال الذهني لدى

الأفراد والجماعات، من حيث التعابير والتجليات التي تتخذها، سواء على مستوى آليات هذا الاشتغال أو على مستوى الدينامية والسيروية»⁵

وما نستشفه من مفهومي السلطة والمعرفة، أنهما نتاج العقل الإنساني وسرديته اتجاه العالم، والتعريف عليه ومحاولة إدراكه معرفيا من جهة والسيطرة عليه من جهة أخرى.

3 - النظام السرد: إنّ المقصود بالنظام هو الطريقة التي يبنى عليها النمط السردى من حيث الصياغة والأداء اللغوي والأسلوبى والجمالى.

والنظام هو ذلك النسق الذي قوامه على مجموعة من العناصر اللغوية، والتي على أساسها يبرز النظام في شموليته، وذلك وفق معادلة الانسجام والاتساق اللغوي والفني.

1.3- القراءة الواصفة للمدونة: إنّ المقصود بالقراءة الواصفة هي تلك القراءة المحايثة التي تندمج في نظام النص وتقرأه وفق معطياته اللغوية، ولا تخرج عن إطاره الجمالي من حيث التفسير والشرح والتأويل.

يكشف القارئ لروايات الكاتب الأمريكي "إرفين د. يالوم، للوهلة الأولى، أنه أمام نصوص جمالية تنتمي إلى عالم السرد المعرفي والفلسفي من خلال طريقة عرض النسق السردى الحامل لشحنات ومرجعيات تنسب إلى عوالم المعرفة.

حيث ننبر حين نقرأ المتون السردية التي يقدمها لنا المؤلف، بطرقه الأسلوبية في سرد المعارف الفلسفية عن فلاسفة يصعب استيعاب فلسفتهم الوجودية والإنسانية، لأنه يقدم لنا عرضا بيداغوجيا غايته التعريف بفكر الفلاسفة ورؤاهم المعقدة في تفسير وتحليل العالم.

لاحظنا خلال قراءتنا للمدونتين "عندما بكى نتيشه" و"علاج شوبنهاور"، أن الروائيتين تهدفان إلى التعريف بالتجربة الفلسفية لكلا الفيلسوفين، بتوظيفه لآلية الحوار من حيث هي خاصية سردية تقرب وجهات نظر الفلاسفة لمتلقين خارج عالم الفلسفة أو غير المتعودين على التمرين التجريدي للخطاب الفلسفي وتقسيماته المعرفية "نظرية

الوجود نظرية الأخلاق، نظرية المعرفة"، فالبنى الروائية بشكل أو بآخر عكست هذه التقسيمات سواء على مستوى الشخصيات أو الموضوعات وأهدافها المعرفية والأدبية. تقدم الروايتان عرضا سرديا للحياة الشخصية والفلسفية "لنيتشه وشوبنهاور"، لاكتشافهما إنسانيا وفلسفيا، وهنا تكمن قدرة السرد الروائي عبر أنظمتها المتاحة في تقديم هوية الفيلسوفين بمختلف تناقضاتها.

وترتكز الروايتان على رابط سردي أساسي هو عرض الوعي المركب للحس المأساوي للوجود، وللإنسان معا، إنَّ الرابط بين الفيلسوفين في الحالة الموضوعية التي كانت تسكنهما، والتي تحولت إلى حالة مرضية عقلية، نتيجة لرؤيتهما المفارقة اتجاه الوجود، والذي في اعتقادهما أنه غير قابل للعيش والتفاعل مع الفضاء الإنساني. لقد وضَّح السرد المعطى النفسي والفكري للفيلسوفين بطرق بسيطة في إبداء الآراء المتناقضة للوضعيات المختلفة. وذلك من خلال آلية الحوار والكلام، وعن طريقهما أيضا يظهر لنا وعي الفيلسوفين؛ أي أن الأداة السردية المعتمدة في الروايتين تسعى جاهدة إلى إمطة اللثام للغموض الفلسفي الذي تميَّز بهما الفيلسوفان.

إنَّ غاية سردية الروايتين ليس فقط إبراز المحتوى الفلسفي والمعرفي لكلا الفيلسوفين، بل يتجاوز الأمر إلى وضعهما في منزلة الناس البسطاء. إضافة إلى خلق فضاء تتحرك فيه الشخصيات في بحثها عن آليات الخروج ومن المآزق والصعوبات النفسية والصحية، مسقطا الفيلسوفين في دوامة الصراعات التناقضات الحياتية التي تواجه الإنسان بغض النظر عن منزلته أو ثقافته.

بني العمل السردى على طرح الآليات التي بإمكانها الحد من المعاناة واقتراح طرق للعلاج، وفتح المسالك المستعصية، وهنا يأتي دور الفيلسوفين بحكم سعة رؤيتهما في فهم المشكلات المختلفة، حتى يعطيا فرصة لاقتناص اللحظة الممكنة «ابتسم بريوير وقال: يا لها من صورة رائعة! شوبينهاير وسبينوزا، مقطران، مكتفان ويصبان في قمع

من خلال بؤبؤ العين، العصب البصري، مباشرة إلى الفصوص القذالية. أصبحت أحب أن أكل بعيني، فقد تعبت كثيرا من القراءة الجدية».⁶

جاءت الصورة السردية للفيلسوفين حاملة في طياتها البعد الإنساني والفلسفي بشكل سلس، عن طريق توظيف الحوار بشكل مكثف، حتى يتماشى مع الأنظمة الكلامية وطرقها في التعبير عن المواقف والوضعيات التي تكون عليها الشخصيات في إبداء ما يختلجها من أفكار وهواجس تعكس حقيقتها بدون زيف أو تضخم أو مبالغة.

4. البيان المعرفي للعنونة: يشكل العنوان العلامة المفتاحية الأولى للدخول إلى عالم النص الأدبي، فقرأته وتحليله، يساعد القارئ على معرفة هوية النص وأبنيته ومضامينه وكيفية اشتغاله على المستوى الفني والجمالي.

«إذا كان العنوان هو باب العمل الأدبي ومدخله، فإن أهميته تتجلى بعد ذلك في الوظائف المتعددة والمختلفة التي من المفروض أن يطلع بها في سياق تلقي النص».⁷ يقدم العنوان في علاقته بالنص، بوصفه موجهاً ودليلاً للقارئ، كي ينخرط في تلقي النص والبحث فيما يطرحه عليه، واكتشاف أفقه المتوقع فكرياً وأدبياً. كما ينهض العنوان أيضاً بمهام وظيفية وتفسيرية، انطلاقاً من صفته منتجا لأنظمة الدوال، وذلك من خلال طريقة بنائه اللساني والأدبي، ليكون بذلك صوت النص ورسالته التواصلية. وعلى هذا الأساس، فإنّ العنوانين " عندما بكى نيتشه" و"علاج شوبنهاور"، يتمظهران بصفة مباشرة للقارئ، ودعوته لمعرفة شخصيات فلسفية لها خصوصيات الجدلية في الفلسفة الغربية.

إنّ ارتكاز العنوانين على اسمين محددين معرفين، يهدف في الأساس إلى التعريف بهما عن طريق السرد البيداغوجي، ومن خلال - سردية الحوار والكلام الأدبي - الذي تقترحه الروايتان ونظامهما السردية، يسمح للقارئ أن يتعرف على "نيتشه وشوبنهاور" في شقهما الإنساني.

فهدف الرواية والأدب عموماً، هو تقديم الطابع الإنساني، في كامل مفارقاته وحماقاته وتناقضاته النفسية والأخلاقية والاجتماعية.

وشخصيتا، "نيتشه وشوبنهاور"، على الرغم من صعوبة نزعتيهما الفلسفية في طرح قضايا الإنسان والوجود والدين والحرية والحياة، إلا أن هذين الفيلسوفين لهما الطابع الإنساني من حيث الضعف والقوة والقلق والأعطاب التي تعتري؛ أي إنسان في وجعه وألمه وبحثه عن العلاج والتوق للراحة والسعادة وتجاوز مأزق الوجود وإشكالاته المصيرية.

وفي هذا الإطار، تكشف لنا سردية روايتي "أرفين د يالوم" الوجه الإنساني المريض والمتعب والمرهق بالأسئلة المركبة والمعقدة والمفارقة للإنسان الذي يسكن "نيتشه وشوبنهاور" وطرحهما لفكرة علاج الذات والوجود من العطب المزمن، وذلك من خلال معادلة التلازم والتماثل للشخصية الفلقة على مصيرها الذاتي من جهة، والمصير الوجودي من جهة أخرى.

ولإتمام المهمة يتمظهر "نيتشه" كحمولة مركبة ومحك ذاتي وموضوعي، على نحو ما تظهره هذه الرسالة القصيرة التي تحمل جملها السردية دلالات فلسفية مثيرة: «دكتور بريوير، يجب أن أراك لمناقشة مسألة بالغة الأهمية وعاجلة. إن مستقبل الفلسفة الألمانية على المحك، أرجو أن ألتقي بك في الساعة التاسعة من صباح الغد في مقهى سورينتو. لو سالومي»⁸

فهذه الرسالة القصيرة من "لو سالومي" إلى الدكتور بريوير، هي بمثابة البيان المعرفي الذي على أساسه تقدم الرواية شخصية نيتشه، ليس فقط ذلك الفيلسوف المتمرد على الأنظمة الأصنام، والمهدم للحقائق المزروعة في العقول، بل أكثر من ذلك، إن هذه الرسالة هي إعلان مبطن بمدى العجز والإحباط والمرض الذي يعاني منه "نيتشه".

وما رسالة "لو سالومي" هي في الجوهر لعبة كشف الوجه الضعيف للكائن العاجز الذي يخفيه "نيتشه"، مثل أي إنسان آخر، بحثا عن علاج ما أو بحثا عن معنى وقيمة مادية أو معنوية تعيده للوجود وللحياة الحقيقية، والتي كانت عنده بيانا فلسفيا خاصا وادعاء كان يطمح إليه في الواقع، ولكن هذا الأخير لا يتوافق مع طموحاته وتصوراتهِ المتعالية.

فالبيان المعرفي للعنوان "عندما بكى نيتشه" كمركب لظرف الزمان، ه لنا "لو سالومي" بصفته الوجه الآخر للزمن المعطوب الذي يبحث عنه نيتشه فيها، فهي تعرف مسبقا عطب نيتشه، وتذكر أيضا أن علاجه لا يكون على يد الدكتور بريوير، والذي يزعم أنه معالجه، إلا أنه يعجز عن ذلك.

ويكشف لنا نظام الحوار الروائي الذي يتم بينه وبين نيتشه عن هذا العجز من خلال طريقة تبادل الأدوار «أقترح تبادل مهني؛ أي أقترح أن أعمل خلال الشهر القادم طبيا لجسمك. سأركز على أعراضك الجسدية وأدويتك. أما أنت، في المقابل، فستعمل طبيا لعقلي، لروحي»⁹

إنَّ بُكائية نيتشه كما يصرح بها العنوان، هي بكائية ذات صلة في المقام الأول بشخصية نيتشه المركبة في بحثه عن المعنى الفلسفي للجسد الذي ولدته الثقافة الغربية ومقولاتها المنتجة، والتي أصبحت بالنسبة لنيتشه مشكلا، لا يمكن تفكيكه إلا من خلال تهديم كل الأبنية التي شيدت هذا الجسد ثقافيا وحضاريا.

وبالتالي فإن مرض نيتشه وعلاجه هو حصيلة ونتيجة لقلقه الذاتي الخاص به، وتماثله مع قلق ومرض الحضارة التي ينتمي إليها شكلا ومضمونا.

والبكائية النيتشوية الدالة في السردية، وبعيدا عن المنزع الشخصي للحالة الخاصة التي عاشها نيتشه، فإنَّ هذه البكائية لها مضمونها الثقافي والتمثيلي والتعبيري، عن حالة عدمية وصلت إليها الثقافة الغربية.

على الرغم من إدعاء هذه الثقافة وبياناتها التنويرية حول الإنسان والحرية والعدالة، لكن كلّ هذا مجرد وهم عبرت عنه التمثيلية البكائية، والتي هي في الأصل والجوهر نتاج للشكل الرأسمالي الاغترابي.

وعلى أساسه تفككت القيم الإنسانية وأصبحت تعبيراً عن الخواء والتشويء الحضاري. إنّ اندفاع الآلة الرأسمالية المتوحشة خلقت تناقضاً وتشويهاً قيمياً، وأخلاقياً، وإنسانياً، وما النيتشوية إلّا انعكاس وتمثيل فلسفياً لصورة حضارة قامت على إعلاء المادة والأشياء على حساب القيم الإنسانية البسيطة في العيش المشترك.

في مقابل نيتشه وقلقه، يقدم لنا عنوان "علاج شوبنهاور"، بيانه المعرفي، كسند وترياق له القدرة على المعالجة عن طريق الفلسفة لحالات مرضية عقلية ونفسية وجنسية، فقصدية العنوان، على المستوى التفسيري، لا تتعلق بمرض شوبنهاور أو علاجه، بل بفلسفته ودورها في اقتراح حلول خاصة في تصحيح المفاهيم التي تتحكم في الجسد ومتطلباته.

وقد أظهرت سردية الرواية الأهمية الفلسفية في علاج الشخصيات التي تعاني قلقاً من نظام العلاقات السائدة نفسياً واجتماعياً. وبيّنت لنا كيف تحولت فلسفة شوبنهاور إلى نظرية في العلاج النفسي للشخصيات المسرودة.

وتظهر قيمة هذه النظرية سردياً في مواقف الشخصيات والمفارقات التي تكون عليها في تشخيص مختلف الحالات المستعصية، حيث تتجلى في العلاقة المفارقة والمركبة بين شخصية "جوليوس" الطبيب النفساني و"فيليب" الشخصية المريضة بالجنس.

فكلاهما ضحية المرض والعجز في مواجهة شبح الموت الحتمي، «جوليوس يعرف مواعظ الموت والحياة كما يعرفها أي شخص آخر. ويتفق مع الرواقيين الذين يقولون:

"ما نولد حتى نبدأ حتى نموت"¹⁰.

على الرغم من المعرفة النفسية التي يستند إليها، جوليوس، كطبيب نفساني، إلا أن فكرة الموت تبقى مسألة جد معقدة خاصة بعد اكتشافه إصابته بالسرطان، «ومع أنه يعتقد بأن هذه الأفكار الكئيبة مفيدة لمرضاه، لم يخطر بباله قط أنها ستطبق عليه أيضا. إلى أن غيّرت تلك اللحظة الفظيعة حياته، قبل أربعة أسابيع، إلى الأبد».¹¹

وعلى الرغم من الاستشهادات التي استند إليها "جوليوس" حول فكرة الموت، إلا أن الموقف منها، يصعب قبوله، فالإنسان في داخله يبقى رافضا لها. ولتجاوزها يوهم نفسه بفكرة الخلود الأبدي.

وهذا ما تحاول فلسفة "شوبنهاور" أن تعري هذا الوهم -التمسك بالوجود- ، وأن فكرة الموت هي إرادة الطبيعة وقوانينها في النشأة والتطور، وما وجود الإنسان، إلا تمثيل لإرادتها العمياء، فالإنسان حكمت عليه الطبيعة أن يكون رهينا لنظامها ، ومهما حاول أو ادعى وتوهم أنه الأقوى بعقله، إلا أنه في المحصلة نتيجة حتمية وجبرية لهاته الطبيعة.

فهي لها تلك السلطة وإن بدت غير واضحة أحيانا، إلا أنها تبقى القانون الأقوى في تسيير الحياة وقوانينها المادية، والتي لا يمكن لهذا الإنسان أن يكون خاضعا ومطيعا بإرادته.

فالطبيعة هي من تنتج قانون الحياة والموت، فالإنسان الابن الشرعي لهاته الطبيعة منها جاء وإليها يعود حسب منطق النظرية الداروينية، فقوانين التطور الطبيعي تحدد بشكل نسقي مدة المسافة الزمنية التي يمكن أن يعيشها الإنسان في هذا الوجود. وموضوع الموت لا يمكن مقاومته مهما استعملنا المعارف والآراء والأفكار السيكلوجية والفلسفية والدينية، فالموت يبقى لغزا دراميا يواجه الإنسان وأسئلته الميتافيزيقية، والوجودية.

ولا نتوقف سردية العنوان في المعرفة بالعلاج، عند "جوليوس" كطبيب نفساني، بل يقدم العنوان نفسه كحل معرفي وفلسفي في علاج الشخصيات العصابية بمرض

الجنس، مثل "فيليب" الذي وجد في فلسفة شوبنهاور الحل المثالي لمشكلته المعقدة مع الجنس، والتي مردها في الأساس هو هذا الاقتران والارتباط المبالغ فيه بجسد الآخر، «فكرة شوبنهاور أيضا بأن الارتباط المفرط بالأشياء المادية أو بأفراد آخرين، أو حتى الارتباط بمفهوم الأنا هي المصدر الرئيسي لمعاناة البشر».¹²

وفي هذا الإطار يطرح شوبنهاور فلسفة الألم انطلاقا من فكرة اشتباك بذات الآخرين، مما يولد اختلالات سيكولوجية وبيولوجية، ومن هنا تتولد مشكلة الألم العميق. فالبحث عن مصدر الألم يتجاوز أثره البيولوجي والنفسي، فهنا فالألم هو صيغة فلسفية ذات طابع خاص أوجده الإنسان من خلال تفلسفه بين الدوافع الطبيعية من جهة، وتعاليه الثقافي والأيدولوجي من جهة أخرى.

فالذات الإنسانية تموضعت أمام أسئلة قلقة عن حقيقة وجودها الأنطولوجي، في المقابل مواجهة العدمية المحتومة سوى كان عن قصد أو غير قصد، فالحقيقة التي تسعى إليها الإنسانية في التعبير عن كينونتها رهينة بمدى التزامها الأخلاقي دون تمييز بين الطبقات الاجتماعية.

إنّ العنوانين في الروايتين يقدمان لنا التيمات الأساسية لمعرفة التصورات الجوهرية للطرح النتشوي في معالجة إشكالات سردية الحضارة الغربية وإنتاجيتها للمفاهيم والتصورات اتجاه الإنسان، كمحاولة لتعزيز فرديته ومركزيته الكونية، وتحريره من براثن السحرية والأسطورة، وفتح أفق المعنى الوجودي، وتجاوز المعنى العدمي. سعت هذه الحضارة أن تقدم شكلا بنيويا يجد فيه الإنسان ملاذه ومبتغاه الحقيقي. ولكن كل هذا بقي مجرد إدعاءات وأمانى وأوهام، كذب وهدمه فلسفتا "نيتشه" و"شوبنهاور"، فكلاهما قدما سردية عدمية مركبة.

فالحضارة الغربية مهما أبرزت قوتها وهيمنتها، إلا أنها تحمل بذور فنائها، فهي تختزن كما وكيفا في تناقض بين المفهوم والواقع والمتخيل، فالروح الحضارية هي ليست

فقط غرائز وملذات حياتية، بل هي معطى ضمني بمحتوى القيم ومضمونها في خدمة الفرد والجماعة.

وما الروائيتين إلا شكل من أشكال نقد مضمون هذه الحضارة الغربية، والذي لم يعد صالحا للإنسان الغربي بالخصوص المشياً في يومياته وعلاقاته الإنتاجية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

إنّ إنتاجية هذه الحضارة المزعومة هي مجرد سرديّة تخفي وتحجب وعيا مرضيا، ولا سبيل لعلاجها إلّا بإدراك أن الإنسان ما هو إلا حالة عرضية في هذا الوجود، وأنّ سعيه للحرية والسعادة والصحة ما هو إلا وهم مبرمج، ابتكرته الأيديولوجيات التي صنعها عبر تمثيلات وعيه الزائف، للهروب من المصير المحتوم بالشقاء والعدمية. إنّ دلالة التطابق اللغوي والدلالي للعنوانين في علاقاتهما التركيبية مع المتنين تفرز عنهما وظيفتان أساسيتان:

4-1 الوظيفة الأولى (إفهامية): تمّ تسويق المحتوى المعرفي والنفسي والفلسفي من ناحية الشرح والتفسير، والتأويل، وذلك من أجل تحقيق وتيسير عملية الفهم والوعي بأهمية المعرفة الفلسفية، وإزالة عنها الإبهام والغموض والتجريد.

من جهة أخرى الاعتماد على أسماء الأعلام في الروائيتين سهل عملية التلقي والفهم لدى القارئ، حيث تكون عملية الاستجابة وقبول النص، فهذه القابلية تنتج الأثر الخاص وتحدث فعالية المتعة المزدوجة بين الفكر ومعطياته وال قالب الفني الذي يركب عملية القراءة ومدى تحقيقها للرسالة الأدبية والفلسفية.

4-2 الوظيفة الثانية (الفنية): اعتماد العنوانين على صيغة لغوية محدّدة هدفه تحقيق سلاسة فنية وجمالية؛ أي أنّ هذه المباشرة والوضوح هو إعطاء الطابع السردى في تبنيه للمعرفة النفسية والفلسفية، وتقديمها للمتلقي كي يتفاعل معها، ويندمج في إطارها ذوقا ومعرفة.

فالعنوان يبقى فاعل أساسي في تحقيق مقاصد النمط الروائي، وبه تبرز الرواية هويتها وخصوصيتها عن باقي الأجناس والخطابات المختلفة عنها شكلا ومضمونا.

5- خاتمة: إنّ المُميّز في سردية الروائيتين أنّهما وظفتا الأبعاد المعرفية والفلسفية والنفسية وفق مقتضيات الكتابة السردية وخصوصياتها، وبطريقة فنية سلسلة، حيث يجد المتلقي نفسه أمام سردية تتضمن في داخلها مضامين معرفية متفاعلة ومتحاورّة مع النظام السردية بنية ودلالة.

إذ نجد في رواية "عندما بكى نيتشه" تقاطع مرض نيتشه الذاتي بمرض الحضارة الغربية في قيمها الفلسفية، والتي تعيش أزمة اليأس والعدمية، وهذا عبر إسقاط هذه الأزمة على شخصية نيتشه بوصفه تعبيرا وتمثيلا ضمنيا، وذاتا فلسفية تعكس التناقضات المركبة في بنية الثقافة والفلسفة الغربية.

أما في رواية "علاج شوبنهاور" فعلى الرغم من طبيعة الفلسفة التشاؤمية في تصورها لإرادة الوجود، إلّا أنّ هذه الفلسفة كانت لها سلطتها المعرفية في تقديم العلاج العقلي والنفسي والجنسي للشخصيات الممثّلة والمتحاورّة، والباحثة عن علاج يخرجها من حالاتها الخاصة، وتبني أفقا جديدا، وتفاوضا حياتيا وإنسانيا.

إنّ التجربة السردية لدى هذا الكاتب نابعة من حكم تكوينه النفساني، والذي سمح له في إسقاط معرفته العارفة بالفلسفة وقضاياها، وإعادة كتابتها من خلال استغلال فن الرواية ومساحتها السردية في استيعاب المعارف المختلفة. فهذه التجربة يمكن أن تقدم خدمة معرفية من جهة، وخدمة فنية وجمالية من جهة أخرى.

اللافت في هذه التجربة، أنّ الروائي وفق في إعادة تشكيل شخصيات حقيقية ذات صيت فلسفي مثل نيتشه وشوبنهاور، حيث أفلح على أساسهما في التسويق الجيد

لأعماله؛ بمعنى آخر أنّ هناك ذكاء من الكاتب في الاختيارات لهذه النماذج ومعرفته مسبقا بمدى تأثيرها على القراء.

إنّ عملية القراءة لهاتين الروائيتين رسمت تصوّرا يستند على إدراك العلاقة التي يمكن أن تتبثق بين المزج لخطاب الفلسفة وقوانينه، وخطاب الرواية ونظامها الجمالي. تنبغي الإشارة إلى أن النمط السردى للروائيتين التي تشغل على الحقول المعرفية، يعطي للرواية حضورها واستمراريتها من حيث فنا يواجه حضور الأشكال الجديدة لثقافة العولمة وزخم الرقمنة المتسارعة، والتي بدورها تنتج أشكالا خاصة بها تزاخم الشكل الروائي الذي أصبح تقليدا حكايا يتعذر تجاوزه بهذه البساطة.

قائمة المصادر والمراجع:

1. إرفين د. يالوم، علاج شوبنهاور، تر: خالد الجبيلي، منشورات الجمل، ط1، بغداد، بيروت، 2018.
2. إرفين د. يالوم، عندما بكى نيتشه، تر: خالد الجبيلي، منشورات الجمل، ط1، بغداد، بيروت، 2015.
3. بناصر البعزاتي، تكوّن المعارف، دور القياس التمثيلي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط1، المغرب، 2005.
4. جيل دولوز، المعرفة والسلطة، مدخل لقراءة فوكو، تر: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب، 1987.
5. عبد المالك أشهبون، العنوان في الرواية العربية، محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، سورية، 2001.
6. محمد جديدي، الحداثة وما بعد الحداثة في فلسفة ريتشارد رورتي، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات -الاختلاف، ط1، بيروت الجزائر، 2008.

الهوامش والإحالات

- 1- محمد جديدي، الحداثة وما بعد الحداثة في فلسفة ريتشارد رورتي، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات -الاختلاف، ط1، بيروت الجزائر، 2008، ص 132.
- 2-جيل دولوز، المعرفة والسلطة، مدخل لقراءة فوكو، تر: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب، 1987، ص 32-33.
- 3-المرجع نفسه، ص 58-59.
- 4-المرجع نفسه، ص 59.
- 5-بناصر البعزاتي، تكوّن المعارف، دور القياس التمثيلي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط1، المغرب، 2005، ص 12.
- 6-إرفين د. يالوم، عندما بكى نيتشه، تر: خالد الجبيلي، منشورات الجمل، ط1، بغداد، بيروت، 2015، ص 58.
- 7 - عبد المالك أشهبون، العنوان في الرواية العربية، محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، سورية، 2001، ص 18
- 8-إرفين د. يالوم، عندما بكى نيتشه، ص 05.
- 9-إرفين د. يالوم، عندما بكى نيتشه، ص 201.
- 10-إرفين د. يالوم، علاج شوبنهاور، تر: خالد الجبيلي، منشورات الجمل، ط1، بغداد، بيروت، 2018، ص 05.
- 11-إرفين د. يالوم، علاج شوبنهاور، ص ن.
- 12- إرفين د. يالوم، علاج شوبنهاور، ص 336.